طرْدُ الذُّبابِ الكاسِر
Expel breakage flies

يا لَها مِنْ ذُبابةٍ سَئيلةٍ لا فكاكَ منها إلا بالموت!
فرفقاً بنا معاشرَ الذُّبابِ، تكونَنْ أكثرَ لطفًا وتَوَدُّدًا.

طردُ الذبابِ الكاسرِ

(١)

دفع باب المقهى في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا، ودخل وجلس وَلَفَّ ساقه الأيمن فوقَ ساقهِ الأيسر، بعدما أسند ظهره إلى الكرسي تمامًا، منتظرًا قدوم الشيشة ، فهو ينشد الراحة بعد تعب منذ الصباح الباكر، ومما يعتريه من منغصات ومكابدات ليس في العمل فقط، وإنما في الشارع والبيت، فولده لا يذاكر إلا بالمتابعة والضرب، فلا يصحو من النوم إلا متأخرًا متكاسلاً، يذهب إلى المدرسة بعد الحصة الأولى يوميًا، زوجته لا ترحمه فهي النكد بعينه .

جاءته الشيشة واستقبلها بحفاوة بالغة، وأخذ يشفط منها دخانًا كثيفًا، ثم ينشره في الهواء، عَبِقَ المكانُ بدخان الشيشة، واقتظ المقهى بروّاده، وقد أوصى على شاي سكره زيادة، جاءه العامل يحمل كوبًا كبيرًا مليئًا بالشاي الأحمر، وضعه أمام السيد شعبان، وقال له :

.تفضل يا سعادة البيه .

تبسم أوكاد يزيح الهموم التي جثمت على صدره ولخبطت غزله، رد بِهَزِرأسه وتحريك قَدَمِه المرفوعة .

(٢)

بينما السيد شعبان كان منغمسًا فيما هو فيه من الأحزان الطاغية وهمومه القاتلة، حامت حوله ذبابة نظر إليها، تابع تحركاتها الدائرية والعمودية، والبهلوانية، قال في نفسه : هل تحزن هذه الذبابة ويصيبها الهموم مثلما نصاب نحن البشر؟! كان سعيدًا بادئ الأمر بها،

وهي ترف وتحوم فوق رأسه تارة، وفوق الطاولة التي أمامه تارة أخرى، تختفي وتظهر في لمح البصر.

كان يرتشف رشفة من الشاي الأحمر، ويمتص نفسًا من الدخان، يرفع الكوب وينزله على الطاولة غير عابئ [1] بما حوله حتى الذبابة التي سَرَّتْهُ، فمازالت في حركاتها البهلوانية فوق الطاولة، تارة تلف وتدور، وتارة أخرى تنزل على الطاولة متخذة لها مدارج خاصة ومتعددة وفي كل الاتجاهات .. رويدًا رويدًا هبطت على مدرج كوب الشاي، عندها انزعج ونسي كلَّ همومه وأحزانه، وأصبحتْ الذبابة هي الشغل الشاغل له .

حاول مرارًا دون جدوى أن يثنيها عن غيها ونزولها على مدرج كوب الشاي الأحمر؛ لتمتص منه رحيقًا، ذلك الذي تركه على حافة الطاولة بعد رشفته مباشرة .

تحرك، تململ، خبط على الطاولة . . على الأرض، أبت الذبابة أن تتركه لحاله، أمسك كوب الشاي الأحمر في يد، ومبسم الشيشة في يده الأخرى، وترك الطاولة ومدارجها للذبابة تتحرك عليها كيفما تشاء .

طارت وحامت فوق الطاولة كطائرة نفاثة حطت على مدرج كوب الشاي الأحمر وهو في يده، وقفت تمتص مطمئنة فلا يقوى على هشها، نفخها بفيه لعلها تطير وتترك ذلك المدرج، وإذ برذاذ من الشاي الأحمر القاني يتطاير في الهواء، وعلى قميصه، لاحظ أحدُ الجالسين تلك المعركة الحامية، والمراوغة الداهية بين كل من الذبابة والسيد شعبان، غمز لصديق كان بالقرب منه، وحوّل الناس كل الناس في المقهى أنظارهم التي كانت منغرسة في الشاشة العلوية ومتابعة ما كان يدور عليها من أحداث وصراع بين مصارعين على حلبة المصارعة الدولية .

(٣)

اشتاط السيد شعبان غضبًا ونزقًا، قام وفي يده كوب الشاي الأحمر ومبسم الشيشة، والممتد منه خرطوم طويل متصل بالقارورة الزجاجية، التي تُصدرُ صوت الكركرة كلما أخذ منها نفسًا، لينفثه في الهواء، دخانًا كثيفًا ممتد الأرجاء .. لاحظ وأحس بالعيون المشرعة نحوه، فكلما نظر إليها زاغت نحو الشاشة العلوية .

تجاهل تلك النظرات، وجلس غير مكترس بما سوف يحدث مع تلك الذبابة الملعونة التي جاءته على حين غِرة، هشها مرارًا، أبت أن تترك تلك الوليمة، فما كان منه إلا أن سكب بعضًا من الشاي على الطاولة لعلها ترتدع عن غيها وتقنع بها وتترك الكوب، إلا إنَّهَا أبتْ أن تتذوق وتشرب إلا من ذلك الكوب الذي يحتضنه بيده ومن حافته بالتحديد .

نادى السيد شعبان عامل المقهى، قائلاً له :

. هات واحد شاي سكره قليل .

أحضره على عجل وقدمه له بلهجته المعهودة طمعًا في البقشيش، استغرب إنه لم ينته من شرب الشاي الذي في يده، قائلاً :

. تفضل يا سعادة البيه .

شكره، وقال :

. ضعه هنا على حافة الطاولة، وأشار إلى ركن نائي . وحدث نفسه قائلاً:

. لعلها تقف عليه تتخذه مدرجًا، تشرب منه، تنزل فيه لتستحم، المهم أن تبتعد عني .

لَفّتْ، صعدت، هبطت في دوائر معهودة .. ظل متابعًا لها ببصره، والناس كل الناس، تتابعه وتراقب جيدًا ماذا سيحدث .. ؟ وهم يكتمون أنفاسهم وضحكات تكاد أن تنفجر كالهواء داخل بلونة بلاستيكية رقيقة أحكمت فوهتها برباطٍ شديدٍ.

غابت .. فارتاح .. وَثَبُتَ في جلسته .. لحظة وقد لَفّتْ ودارتْ فوق

رأسه في لمح البصر، ظل يضرب الهواء ذات اليمين وذات الشمال؛ لعلها تهمد، فكر أن يخلع نعليه ويطير وراءها يتعقبها يصارعها؛ ليقتلها ويقضي عليها، أو أن يمسكها ويُقَطّعُ جناحيها ويعذبها تعذيبًا شديدًا جزاءً لها ولأفعالها، أو أن يفعصها تحت نعاله الجديدة .

انتشرت بقعة من الضوء الممتد على الطاولة فتابع خط الضوء الآتي من شعاع الشمس والمنبعث من نقطة في الجدار.. فظهرت وأتته على عجل وهبطت على مدرج كوب الشاي الأحمر، الذي كان يحتضنه بيده، وقد عفت الكوب الموضوع في نهاية الطاولة . تنحنح، تململ السيد شعبان مرارًا، فتفل في وجهها، الناس يَضّجعون من الضحك .. وقد لووا أعناقهم جميعًا تجاه تلك المصارعة الحامية، ونسوا وتناسوا مصارعة الشاشة، وأولوها ظهورهم تمامًا .

رَنَّ هاتفه المحمول، حمله، تكلم، فهو يعرف مَنْ المتصل تمامًا، قال :

. حاضر.. حاضر.. حاضر.ريا ستي، الدنيا مش طارت ولا حطت، مش وكلين النهارده .

لقد طلبتْ منه أن يأتي بأنبوبة بوتاجاز ملئ على عجل، فهي تطبخ، فحتما سيخرب الطعام، خاصة الأرز فإنه لم ينضج بعد .

الذبابة تطير وتحوم، أبطال مصارعة الشاشة يتصارعون، دوي السيارات في الشارع يتصاعد، طائرة نفاثة تخترق الغيوم، الأشجار تتحرك، الرِّياح تَئِزُّ[٢] وتعصف، العيون مشرعة .. إنَّهَا شريحة عرضية من يوم الحياة .

(٤)

نظر إلى الذبابة وقد بلغ منه الغيظ منتهاه، تابعها بعينيه، هشها بيديه .. اصطدمت يده بجسمها، فَكُسر جناح من جناحيها؛ فَمَالَتْ مُنْحَنِيةً فِي طَيَرَانِهَا .. أُعْجِبَ بِهَذَا المَنْظَرِ الَّذِي لَا يَصْنَعُهُ إلَا طَيارٌ مُحْتَرِفٌ

ماهر، فهي تطير على جنبها مشرعة جناحًا إلى أعلى، كأنَّهُ شراعُ سفينةٍ تمخرُ عبابَ البحرِ الهائج المتلاطم الأمواج .. ذهبت بعيداً حيث نقطة الضوء التي يشع منها الشعاع الراسم بقعة من الضوء على الطاولة، وتحركت بعيدًا بعيدًا عنه .. وعادت في توها بنفس طريقة الطيران مجنحة ومشرعة شراعها.

جحظت عيناه، وأمسك ذقنه متعجبًا من هذا العناد، وذاك الصراع المرير الذي تغلغل في نفس هذه الذبابة اللعينة .. أيقن في نفسه بأن الذباب يعيش في مشاكل وهموم وصراع وتطاحن مثله تمامًا، وككل البشر..

وقف وترك الكوب والمبسم، وتابعها ومشى على أهداب عينيه، يراقبها، فإذ بها تقترب مجددًا إلى الكوب ومدرجه المعهود، فما كان منه إلا أن فرد كفه الأيمن كالمطرقة وضربها ضربة كرة المضرب تمامًا؛ فسقطت في الكوب محققًا هدفًا رائعًا، تبسم، فرح، صَفَّقَ له كل الحضور، جلس يلهث بعد المعركة .. رفع قبضته واقفًا يلّوح بها في الهواء، ضاغطًا على أسنانه، برقت عيناه .. لأول مرة استشعر فيها حلاوة الانتصار والفوز الكاسح منذ عشرين عامًا من زواجه .

(٥)

طلب السيد شعبان كوبًا من الشاي وحجرًا جديدًا للشيشة؛ حتى ينعم بلذة الفوز، مدد رجليه ولبس نظارته ورفعها فوق عينيه، وأخذ يرشف من كوب الشاي الجديد ويمتص من دخان الشيشة وينفثه في الهواء محدثًا جلبة دخانية كثيفة عبّقت المكان كله، كان يتأمل الخصم المقتول، داخل كوب الشاي الأحمر القاني، وها هي جثة هامدة تطفو وتلف وتدور فوق صفحة بركة الشاي الأحمر، شرد بفكره بعيدًا يفكر في زوجته والشارع والأولاد .. ينظر مثبتًا عينيه على الشاشة العلوية دون أن يرى شيئًا .

فجأة .. وقد رأى الذبابة المهزومة المقتولة تقف على مدرج الكوب، تتمايل كأنَّمَا تريد أن تتخلص مما علق بها وما لحق بها في المعركة، تريد أن تنهضَ .. فاهتز السيد شعبان، وجحظتْ عيناه، وبلع ريقه، ومد عنقه مَدًا كادتْ عيناه تسقطان داخل الكوب .. تراجع للخلف رويدًا رويدًا، وقد حَدَّقَ [٣] النَّظَرَ فِيها.. متسائلاً:

.هل مازالتْ .. على قيد الحياة ؟!!

لابد أنَّهَا ستنكفئ على وجهها وتسقط مجددًا.

وبينما هو كذلك، وإذ بها تطير فيتابعها واقفًا، حتى غابتْ عن عينيه .. جلس وعاد إلى ما كان عليه، حاول أن ينسى كُلَّ ما حدث، مدركًا بأنَّهَا ذهبت إلى حال سبيلها، فلا داعي تذكر الماضي .. بينما هو في غمرة النسيان، عادتْ مجددًا، تشق الهواء شقًا، بجناح مشرعٍ إلى أعلى، وأسراب من حاشيتها كجيوش جرارة خلفها تحمل أسلحة لا قِبَل له بها. تنحى الجالسون في أركان المقهى لتلك الجيوش الجرارة، والتي جاءتْ من كل حدبٍ وصوب، تتابعت أسراب الذباب واحتشدتْ ، وحطتْ عليه، مُشَكِّلَةً جسمه .. طردًا من الذباب الكاسر .. !!

---

(١) غَيْرُ عَابِئٍ بِشَيْءٍ : غَيْرُ مُكْتَرِثٍ ، غَيْرُ مُهْتَمٍّ .
{قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ }

(٢) تئز: من أَزِيز الرِّيح : أي صَفِيرُهُ . ومصدره أَزَّ.
وأَزِيزُ الرَّعْدِ أي : صَوْتُ الرَّعْدِ .
وأَزِيزُ الحَشَرَاتِ أي : طَنِينُهَا .
وأَزِيزُ مُحَرِّكِ السَّيَّارَةِ أي : اِهْتِزَازُهُ وَصَوْتُهُ .

(٣) حَدّقَ النَّظَرَ فِيها : أَمْعَنَ ، حَدَّدَ النَّظَرَ إِلَيْها.